

سجلهاسة مركز القوافل التجارية

الأستاذ العربي الرباطي¹

عرف المغرب الأقصى خلال العصور الوسطى تأسيس عدد من المراكز الحضرية كانت وظيفتها الأساسية هي التجارة مع أفريقيا الغربية. من بين أهم هذه المراكز، مدينة سجلماسة على أطراف الصحراء والتي كانت تحتل موقعا استراتيجيا اتخذتها القوافل التجارية الرابطة بين أفريقيا جنوب الصحراء وموانئ البحر الأبيض المتوسط بالشمال أو من وإلى بلدان المغرب العربي والشرق العربي محطة للتبادل وبيع وشراء مختلف أنواع السلع الآتية من هذه الأقطار. وقد ازدهرت هذه المدينة واتسع نفوذ إشعاعها في القرون الوسطى خصوصا بعد توقف الطريق التجارية الشرقية الرابطة بين غرب إفريقيا ومصر. ولم يتم التخلي عن المدينة إلا بعد تحول الطرق التجارية بداية من القرن الخامس عشر نحو موانئ المحيط الأطلسي والتواجد الأوروبي بها.

والمدينة اليوم عبارة عن أطلال متناثرة على مساحة واسعة بواحة تافيلالت، لم يبق لها من ذكرى إلا ما جاء في النصوص الجغرافية أو ما كشفت عنه الحفريات من مجدها الغابر.

سجلهاسة : محور التجارة السودانية

لقد اهتمت جل المصادر الجغرافية القديمة بمدينة سجلماسة تبعا للدور الذي لعبته في التجارة الصحراوية. وتم تحديد موقعها بناء على المسافات الفاصلة بينها وبين المدن

* أستاذ التعليم العالي مساعد، أستاذ تاريخ الفن والآثار بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، الرباط.

الكبرى بالمغرب الأقصى فاس، تامدولت ومراكش أو بالصحراء الغربية كأوداغست وغانا أو المدن المغربية كتاهرت والقيروان أو مدن السودان الغربي المصدرة للتبر¹.

بنيت المدينة على موقع طبيعي ممتاز وهو عبارة عن هضبة مرتفعة عن مستوى غمر مياه فيضانات وادي زيز. واختيار هذا المكان تبرره حاجة سكان المدينة إلى الحماية اللازمة لتفادي فيضانات الوادي الذي يحيط بالمدينة وفسح المجال لممارسة النشاط الزراعي في الأراضي السهلية المجاورة.

وأصل كلمة "سجلماسة" كما تناولته معظم المصادر الجغرافية جاء اشتقاقها من اللغة الأمازيغية وهي تعني المكان المشرف على المستوى العادي لجريان المياه.² لقد اختلف لفظ سجلماسة اليوم ولم يعد مستعملا في رواية المحليين إلا نادرا.

التأسيس : من عاصمة لإمارة إلى عاصمة جهوية لإمبراطورية

تنقسم الروايات الخاصة بتأسيس مدينة سجلماسة في مختلف الكتب الجغرافية إلى نوعين: روايات تعيد تأسيسها إلى مرحلة ما قبل الإسلام وأخرى تقول بأنّ بناءها تمّ في الفترة الإسلامية.

وتبقى الروايات التي تقول بتأسيس مدينة سجلماسة في مرحلة التاريخ الإسلامي الأكثر اطمئنانا، حيث تتفق النصوص الجغرافية والرحالة العرب على أنّ المدينة بنيت عام 140 هـ/ 757م على يد قبائل مكناسة الذين اعتنقوا مذهب الخوارج الإباضية، لتصبح عاصمة لإمارة بني مدرار³. وتعتبر بذلك أول مدينة بنيت في العهد الإسلامي بالمغرب الأقصى قبل فاس عاصمة الأدارسة.

وقد قام بنو مدرار بضرب عملات ذهبية عديدة بعاصمة إمارتهم منذ تأسيسها، غير أنّ ما هو متوفّر منها يعود لفترة حكم محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله (933م - 958م) وهي عبارة عن دنانير ذهبية كتب عليها في الوسط ضرب بسجلماسة.

1 - ابن سعيد أبو الحسن علي المغربي: كتاب الجغرافيا، بيروت 1970 ص 124، كولان: مادة سجلماسة دائرة المعارف الإسلامية عدد 11 ص 298.

2 - المغربي مزين: سجلماسة، مذكرات من التراث المغربي، الرباط 1984، المجلد الثاني ص 25.

3 - البكري أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب الجزائر 1985، ص 149.

كما تمّ العثور سنة 1992 بمدينة العقبة بالأردن على كنز به 32 ديناراً ذهبياً منها 29 ديناراً ضرب بسجلماصة سكت حوالي القرن الرابع الهجري عندما كانت مدينة سجلماصة تعترف بالتبعية للأمويين بقرطبة (الأندلس)⁴.

وتشهد هذه النقود الذهبية على الدور الذي لعبته المدينة في التجارة بين البحر الأبيض المتوسط الشرقي وغرب أفريقيا.

كما كانت مدينة سجلماصة من بين أهمّ المراكز النشيطة في ضرب العملات المرابطة والموحدة والمرينية من القرن العاشر إلى الرابع عشر الميلادي.

لمّا انتهت ثورة الخوارج واستقرت أحوال البلاد السياسية بقيام دولة مستقلة بالمغرب الأقصى: إمارة بني مدرار، قدّر للمنطقة أن تشهد ازدهاراً ملموساً في كافة النواحي الاقتصادية. حيث قامت إمارة بني مدرار في مناطق صحراوية ومع ذلك واكب قيامها ازدهار في الزراعة والصناعة ورواج تجاري.

لقد استفاد بنو مدرار من مياه الأودية والعيون في تحويل البقعة التي اختاروها وأقاموا فيها عاصمتهم إلى سهل فيضي⁵ صيروا فيه الخلجان وشقّوا القنوات لتوصيل المياه إلى مساحة واسعة واستكثروا الغرس، فزرعوا أشجار النخيل والعنب على مساحة بلغت أربعين ميلاً⁶.

واشتهرت سجلماصة إلى جانب ذلك بالحنطة والشعير والقطن والكمون حتى وصفها الإدريسي "بأنها كثيرة الخضر والنبات"⁷.

وقد ساعد تأسيس سجلماصة ووجود عناصر غير مغربية فيها كاليهود والأندلسيين والفرس والعرب المشاركة والزنوج وكذلك وفرة المناخ بمناخ خاصة في منطقة درعة القريبة منها والغنية بالذهب والفضة، ساعد على استغلال مقدّرات البلاد الاقتصادية، حتى اشتهرت المدينة بضرب السكة.

4 - Messier Ronald. A. "The Almoravids West African Gold and the Gold Currency of the Mediterranean Basin". *Journal of the Economic and social History of the Orient*, 1974;

5 - البكر. م.س، ص 148-149.

6 - الاستبصار في عجائب الاستبصار، الدار البيضاء، 1985، ص 201.

7 - الإدريسي صفة الغرب، ص 60، القلقشندي ج. 5، ص 164.

كما أن بني مدرار حرصوا على الاستفادة من هذه العناصر، بخاصة الأندلسية واليهودية، في دعم دولتهم وإقامة المصانع والقصور، وكانت طوائف أخرى منهم تحتكر حريف الحدادة والصناعات المرتبطة بأعمال البناء.⁸

أما الدور البارز الذي لعبه الخوارج في حياة المغرب الأقصى الاقتصادي فكان في مجال التجارة. إذ قامت إمارة بني مدرار بدور الوسيط في التجارة عبر الصحراء شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بعد أن أصبحت طريق مصر للقوافل غير آمنة فتوقفت، كما تدل على ذلك اللقى الخزفية التي تم العثور عليها بموقع أوداغست بموريتانيا حالياً والتي تقلصت بداية من القرن التاسع في الوقت الذي تزايد فيه خرف منطقة سجلماسة بشكل ملحوظ،⁹ وهو ما تؤكده النصوص الجغرافية أيضا.

وهكذا لعبت سجلماسة دور ميناء صحراوي للقوافل التجارية ومحطة للتوقف وتبادل السلع بأسواقها ومدينة عبور نحو الصحراء لجلب الذهب. وكان البربر من قبائل زويلة ومسوفة وجدالة يصحبون القوافل إلى غانا. وكانت مدة الرحلة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر حسب الطريق التي تسلكها القافلة.

إذا تفحصنا الظروف العامة للإمبراطورية الإسلامية نجد أن كلا من الخلافة الأموية والعباسية كانت تقوم بضرب النقود من الفضة والذهب منذ أن أمر عبد الملك بن مروان بذلك سنة 691 م. وكانت الدنانير الذهبية تضرب من القطع والجواهر والأواني الذهبية بعد تذويبها والتي حصل عليها المسلمون من البلدان المفتوحة. وبما أن الفتوحات توقفت والطلب على ضرب النقود الذهبية تزايد، فقد كان ضروريا البحث عن هذا المعدن النفيس عن طريق التجارة للحفاظ على استمرارية ضرب الدنانير.

كانت القوافل تأتي من بغداد والموصل إلى بلاد المغرب مارة بالأندلس والرقّة وحلب ودمشق والفسطاط والإسكندرية ومنها إلى برقة ثم القيروان وأخيرا إلى سجلماسة المحطة الرئيسية لتبادل السلع.¹⁰ ورغم سوء العلاقة بين تاهرت وسجلماسة وبين بغداد والقيروان وفاس فإن قوافل التجار المشاركة كانت تجتاز بلاد المغرب إلى سجلماسة. كما أن الطريق

8 - البكري، ص، 149.

9- M. Picon et al. " Ateliers producteurs et commerce saharien à l'époque médiévale ", La Céramique Médiévale Nel Mediterraneo Occidentale. Fieraze 1986, pp. 51-54

10 - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة 1915، ج 5، ص 164.

البحري بين سجلماسة من موانئ البحر الأبيض المتوسط (نكور، بادس، طنجة، سبتة) إلى موانئ بلاد الأندلس كان غاصاً بالسفن.¹¹

وبذلك أصبحت مدينة سجلماسة همزة وصل للتجارة الصحراوية بين بلاد المغرب والأندلس وبين بلاد أفريقيا ومحطة رئيسية لرحيل القوافل نحو بلاد السودان الغربي. فغصت سجلماسة بالعراقيين من بغداد والكوفة والبصرة وكانت القوافل تحمل سلع المشرق (اللؤلؤ الزجاجي والقوارير الزجاجية من دمشق والفسطاط) إلى بلاد المغرب وتعود محملة بالمنتجات والمواد من إفريقيا الغربية خصوصاً التبر في صحبة أهل سجلماسة.¹²

فأصبحت لهذه الجاليات العربية من المشرق والأندلس مساجدها وقصورها وفنادقها وأسواقها الخاصة بها بالمدينة.¹³

عرفت الفترة الأخيرة من حكم سلالة بني مدرار تدخل الفاطميين بالمدينة تحت قيادة جوهر الصقلّي الذي أنهى حكم بني مدرار أواخر القرن العاشر الميلادي. وظهرت بالمدينة قوة جديدة هي دولة المغراويين (976-1054م) وهم فرع من قبيلة زناتة كان ولاؤها أكثر لأمويي الأندلس. وقد احتدم الصراع بين الفاطميين والأمويين بالأندلس لكسب النفوذ والسيطرة على المدينة طيلة القرن العاشر.

وانتهت هذه الإمارة المستقلة بسجلماسة بظهور قوة جديدة قامت بتوحيد المغرب الأقصى والصحراء ثم بعد ذلك بتوحيد بلدان المغرب العربي والأندلس: إنها دولة المرابطين (1054-1153م) من قبائل لمتونة¹⁴ الصنهاجية المنتشرة بالصحراء الغربية إلى حدود نهر السنغال جنوباً.

وقد أصبحت مدينة سجلماسة ابتداء من سنة 450 هـ/1054م تحت إمارة المرابطين وعاصمة جهوية لإمبراطورية واسعة طيلة أربعة قرون وازداد بذلك دورها التجاري وتوسعها المعماري إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي حيث تعرضت للحصار مرات عديدة وللقصف "بالمجنيق والعرادات والنفط القاذف بحصى الحديد"¹⁵. وزاد من اضمحلال

11 - الحميري، ص 21.

12 - Lewi Provençal, *Histoire de l'Espagne musulmane*, Vol. I., p. 248.

13 - ابن حوقل، ص 43.

14 - ابن الصغير، ص 50.

15 - ابن خلدون، تاريخ البربر، ج. 7، ص 220-221.

دورها تحول الطرق التجارية نحو موانئ المحيط الأطلسي بعد وصول الأوروبيين إليها وإنشائهم لمراكز تجارية بها.

أما الرواية الشفوية المتداولة حول خراب المدينة، فيرجعها السكان إلى هبوط عاصفة رملية لمدة سبعة أيام أهلكت ساكني المدينة وأخلت المدينة بعدها حيث تفرق من نجا منهم في القصور الموجودة بواحة تافيلالت.¹⁶

ومدينة سبلماسة منذ تأسيسها في القرن الثامن لم تكن قلعة حصينة بل كانت ميناء صحراوياً وملتقى للطرق حيث نجد إشعاعاً للمحاور الطرقية التجارية حسب الاتجاهات الأربعة.

وقد دخلها الفاطميون سنة 958 م، كما استولى عليها المرابطون سنة 1054 م والموحدون في نهاية القرن الثاني عشر دون عناء كبير ودون خسائر. ربما يرجع هذا الطابع السلمي للمدينة لتنوع سكانها ولموقعها الغير الحصين. فلا الهضبة التي تقع عليها ولا الوادي يعتبران حماية لها، كما أن أسوارها المبنية بالتراب المدكوك أو الطوب لم تصمد أمام الحصار، فقد بقيت المدينة مفتوحة للجميع فالغازي الذي دخلها بالأمس يصبح تاجر الغد مندمجاً في المدينة ويدافع عن بقائها وازدهارها لأنه أصبح يستفيد من ذلك الازدهار التجاري.

المسالك التجارية

لعبت سبلماسة دوراً مهماً في عملية التواصل بين المغرب الأقصى والسودان الغربي بحكم موقعها على مشارف الصحراء الكبرى. لم تختص سبلماسة بهذا الدور لوحدها بل كانت كل المناطق الواقعة جنوب جبال درن مؤهلة للقيام بنفس الدور مثل درعة ووادي نول. غير أن تأسيس مدينة سبلماسة في عهد المدرارين ومن بعدها مغراوة جعلها محطة رئيسية في عملية التجارة الصحراوية لأن موقعها لعب دوراً كبيراً في ذلك.

"وهذه المدينة - أعني سبلماسة - متوسطة في الصحراء، مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش على حد سواء، فمن حيث قصدت إليها من إحدى هذه البلاد، كان ذلك مسافة عشر مراحل" (المعجب ص 357).

فقد أسست سبلماسة في مركز دائرة مركبة في عدة دوائر متداخلة حيث يحسب كل إشعاع بالأيام حسب محور الرحلة كما جاء ذلك عند البكري.

16 - ابن محلي: تفهيد في التعريف بمدينة سبلماسة مخطوط الخزائن الملكية رقم 12163 ورقة رقم 2.

- 6 أيام من سـجـلمـاسـة للـوـصـول إلـى مـطـمـاطـة أـمـسـكـور أو وـرـزـازـات.
- 5 أيام للـوـصـول إلـى فـاس عـبـر المـسـلك الصـيـفي.
- مـن 11 إلـى 12 يـوم للـوـصـول إلـى أـغـمـات، تـامـدـولت أو طـنـجـة فـي الشـمـال.
- 20 يـومـا مـن سـجـلمـاسـة إلـى تـانـتـال (مـعـدن المـلـح) أو طـنـجـة.
- 50 يـومـا للـوـصـول إلـى القـيـروان أو أوداغست بـمـورـيتـانـيا.

والطرق التجارية ارتبطت بالمسالك السهلة ونقط الماء، لكنها أيضا ارتبطت بالعامل السياسي والأمني. فالمرابطون بعد قيام دولتهم في المغرب الأقصى حوّلوا الطّرق التجارية الصحراوية نحو الشمال الغربي.

ويمكن أن نـمـيّز بـيـن فـتـرتين فـي تـطـوّر المـحـاور التـجـاريـة الرابطة بـيـن بـلاد السـودان الغـربي والمغرب الأقصى: فترة أولى تبتدئ بالقرن العاشر وتنتهي في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي وفيها ظلّت سـجـلمـاسـة تلعب دورها كاملا في التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، وفترة ثانية ابتداء من القرن الخامس عشر وفيها فقدت سـجـلمـاسـة دورها وتخلّت عنها لصالح الطريق الساحلي بكل من منطقة وادي نون ودرعة وسوس (J. Devisse, 1972, p. 55) وهذه الطرق التجارية الصحراوية التي ربطت الغرب الأقصى بالسودان الغربي هي ثلاثة:

- طريق سـجـلمـاسـة - غانة عبر أوداغست،
- طريق سـجـلمـاسـة - تمبكتو عبر ممالح تغازي،
- والطريق الساحلية التي كانت تمرّ بنول لمطة وممالح أوليل وهي الطريق الذي كانت لها أهمية كبيرة في العهود القديمة والفترة المبكرة من التاريخ الوسيط: ثم تقلص دورها ابتداء من القرن العاشر الميلادي إلى نهاية القرن الرابع عشر.

1 - ويقول ابن حوقل عن هذه الطريق : "وأخر العمارة أوليل إلى سـجـلمـاسـة راجعا إلى الإسلام شهر وكسر، ومن سـجـلمـاسـة إلى لمطة معدن الدرق اللطية عشرون يوما . ومن أوليل إلى لمطة خمسة وعشرون يوما ودون لمطة من بلاد المغرب تاملت وعلى جنوبها أوداغست" (ابن حوقل، ص 91).

يتّضح من هذا النص أنّ الطريق الساحلية بين سـجـلمـاسـة وأوليل كانت تتطلّب مسيرة ستين يوما .

2 - أمّا طريق وادي درعة - غانة عبر وادي تركا فتقع إلى الشرق من الطريق الساحلية وتمرّ بدرعة بعد خروجها من منطقة سجلماصة ثم تتبع مجرى هذا الوادي حتى تصل إلى جنوب مدينة نول لمطة، فتمرّ بوادي تاركا ثم تتّجه جنوبا نحو أوداغست ومنها إلى غانة. ويقول عنها البكري: "فمن وادي درعة خمس مراحل إلى وادي تارجا (تاركا) وهو أوّل الصحراء، ثم تمشي في الصحراء .. وتصل إلى رأس المجابة إلى البئر المسماة تزامت ... وفي الشرق منها بئر تسمى بئر الجمالين وعلى مقربة منها أيضا بئر تسمى ناللي... وبين هذه الآبار الثلاثة وبلاد الإسلام مسيرة أربعة أيام ومنها إلى جبل يسمى أدرار وتفسيره جبل الحديد، ومن هذا الجبل مجابة مأوها على ثمانية أيام وهي المجابة الكبرى وذلك الماء في بني ينتسر من صنهاجة ومنها إلى قرية تسمى مدوكن لصنهاجة أيضا ومنها إلى غانة أربعة أيام" (البكري، 164)، لكن من الملاحظ أنّ هذه الطريق لا تمرّ بالملاحة وربما كانت تستعمل فقط في طريق العودة.

3 - سجلماصة غانة عبر تامدولت وأوداغست

هذه الطريق الثالثة هي المسلك الأكثر أهمية في عملية التبادل التجاري في العصر الوسيط واتّخذت أهمية تجارية بفعل استغلال ملاحة جديدة في الصحراء الكبرى هي ملاحة تانتال والتي عرفت باسم تغازي فيما بعد وكانت أهمّ من ملاحة أوليل. وقد سمّاها البكري بطريق الآبار. "من سجلماصة إلى تامدولت إلى بئر الجمالين مرحلة، ومنه إلى شعب لا تسير فيها إلاّ متتابعة مرحلة ثم تسير في جبل يسمى أزور ثلاثة أيام... إلى ماء يسمى تندفس آبار يحفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتدفن. ثم تسير منها ثلاثة أيام إلى بئر كبير يقال له وين هيلون ثم تمشي في أرض سواء صحراء ثلاثة أيام... إلى ماء نزر يقال له تازقي ثم إلى بئر أنبطها عبد الرحمان بن حبيب... مرحلة ثم إلى بئر يقال لها ويطونان وهي كبيرة... ثلاثة مراحل ثم تمشي في مجابة جبال ورمل معترضة لا ماء فيها وهو أصعب موضع بطريق أوداغست أربعة أيام، إلى موضع يقال له وانزمين...، وبهذا الماء تجتمع جميع طرق بلاد السودان وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق... ثم إلى أوداغست" (البكري: 156-158).

إنّ أهمية هذه الطريق هي التي جعلت البكري يذكر مراحل ومحطّاته بهذا النوع من التفصيل. والمراحل الفاصلة بين سجلماصة وأوداغست عبر هذه الطريق إحدى وخمسون مرحلة. وأهمّ ما في هذه الطريق ممالح تغزي وهي على بعد مسيرة عشرين يوما من سجلماصة. وعلى هذه الملاحة حصن مبنيّ بحجارة الملح وكذلك الشأن في بيوتها

ومسجدها. ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر بلاد السودان. وقد جاء نفس الوصف عند كل من ابن سعيد المغربي وابن بطوطة.

وقد أصبحت سجلماسة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي أهم محطة تصل إليها الخطوط التجارية الرابطة بين بلاد السودان الغربي والمغرب الأقصى، وضعفت الطرق التجارية الغربية ويرجع ذلك إلى استغلال ممالح تغازي واعتماد التجار عليها في قطع الملح على شكل ألواح يسهل نقلها.

ورغم صعوبة هذه الطريق التي تندر فيها الماء فقد اتخذها ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي من سجلماسة إلى تغازي ثم إلى أبو لاتن وقد استغرقت الرحلة شهرين كاملين (ابن بطوطة، ج.2، 773، 776).

الطريق التجارية الرابطة بين سجلماسة والمدن المغربية

اتضح هذه الطرق التجارية الداخلية في المغرب الأقصى منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ولم تعرف هذه الطرق تغيرات كبيرة، وانتظمت في ثلاثة محاور: محور الشمال ربط سجلماسة بالبحر الأبيض المتوسط عبر فاس وسبتة، والثاني محور الشمال الشرقي ربطها بتاهرت والقيروان وتلمسان، والثالث محور الجنوب الغربي ربط سجلماسة بمدينة أغمات ومرآكش وتامدولت ونول لمطة.

مورفولوجية المدينة

إن موضع سجلماسة الذي تظهر فيه بقايا الأطلال الأركيولوجية اليوم عبارة عن مجموعة من التلال وسط أراض سهلية تحدها شمالا الساقية المسماة وادي الشرفاء، وغربا وادي زين، وشرقا قصر الريضاني وقصيبة الحذب، وجنوبا قصر كرينفود.

وموقع سجلماسة مرتفع فوق طبقة صخرية تتخذ شكلا طويلا من الشمال نحو الجنوب.

تم التعرف على هذا الموقع منذ الثلاثينيات من القرن العشرين عندما بدأ الاهتمام بالمنطقة وانطلاقا من الصور الجوية وأوصاف الجغرافيين للمدينة خلال القرون الوسطى.

وقد ذكر تيراس اعتمادا على دراسة الصور الجوية التي أخذت للموقع أن خرابها يمتد على مساحة ثلاثة كلمترات طولاً وبين 500م إلى 1000م عرضاً.¹⁷

H. Terrazse, Note sur les Ruines de Sijilmassa. R.A. Alger 1936, p. 581. - 17

كما أكدت الدراسة الجيولوجية لموضع خراب المدينة على فهم سبب اختيار هذا المكان لبنائها لأنه عبارة عن هضبة ذات حافة منحدرية مكوّنة من طبقة صخرية ومستوية نسبياً يتراوح عرضها بين 300 م و600 م وطولها حوالي كيلومترين في شكل طاولة مرتفعة عن غمر المياه.¹⁸

غير أنّ المساحة التي يمتد عليها موقع سجلماسة أكثر من ذلك، حسب التحريات الأركيولوجية التي قمنا بها خلال حملة التنقيب بالموقع. كما أشارت المصادر الجغرافية والتاريخية إلى أنّ مدينة سجلماسة كانت كبيرة ومتحضرة تضم مباني جميلة وبساتين مخضرة. وركزت أغلب النصوص القديمة على جمالية معالمها المعمارية. وقد أكدت ذلك الدراسات الأثرية بالموقع أيضاً من خلال اللقى الأثرية لقطع الجبس المنقوش أو من خلال بقايا البنايات المكتشفة وقطع الرخام المستعملة في بعض المباني.

ويعتبر الإدريسي، الجغرافي الوحيد الذي ذكر أنّ سجلماسة لم تكن محاطة بسور ربّما أن ذلك يرجع إلى كون الموحّدين الذين استولوا على المدينة في عهده قاموا بتخريب أسوارها.

وقد أجمعت كل المصادر الجغرافية الأخرى على أنّ المدينة كانت محاطة بسور، وقد ذكر المقدسي أن سورها من طين،¹⁹ وأورد البكري تاريخ تأسيسه حين قال بأنّ سورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسع أبو منصور بن أبي القاسم من ماله الخاص ولم يشاركه في الإنفاق عليه أحد، وله إثنا عشر باباً، ثمانية منها حديد وذلك سنة تسع وتسعين ومائة.²⁰

إنّ بقايا السور التي تظهر الآن بموقع سجلماسة تعود إلى عهد متأخّر لكن شكلها ورسمها لا يختلف عن السور القديم للمدينة خصوصاً وأنّ هذا الأخير كان يتبع حافة الهضبة التي بنيت عليها المدينة لاستغلال الحصن الطبيعي الذي توفّره حافظتها.

أما البقايا التي ما تزال قائمة إلى اليوم فهي من التراب المبني بطريقة "اللوّح" وتعود للقرن الثاني عشر أو الثالث عشر الميلادي.²¹

J. Margat. Note sur la morphologie du site de Siljilmassa, Hespérus 1959, pp. 254-26. - 18

19 - المقدسي: "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، ليدن 1909، ص 231.

20 - البكري، م.س. ص 148.

H. Terrasse. Op. Cit. p. 584. - 21

كان لسور سجلماصة عدد من الأبواب لم يرد ذكر أسماء أغلبها، إلا أنه يظهر أنها كانت موزعة على كل الجهات حتى تسهل مأمورية خروج القوافل نحو مقاصدها، ويظهر ذلك من أسماء بعض الأبواب التي أوردها المقدسي حين قال: "إن سجلماصة باب قبلي، باب غربي، وباب غدير الجزارين وباب موقف زنادة وغيرها".²²

والباب القبلي كان يقع في الجنوب، منه تخرج القوافل في اتجاه بلاد السودان الغربي، أما الباب الغربي فهو مخرج القوافل المتجهة نحو درعة أغمات ومراكش.

ويظهر أن الباب الرابع الذي يحمل اسم قبيلة زنادة كان الأهم، كما يفترض أن يكون أجملها لأنه يحمل اسم القبيلة الأم التي تنتمي إليها مكناسة مؤسسة المدينة وهي قبيلة زنادة.

أما الذين ذكروا عدد الأبواب الإثني عشر فهم البكري وصاحب الاستبصار الذي أخذ عنه وكذلك عبد المنعم الحميري.

كانت سجلماصة مقسمة إلى أحياء تسكنها قبيلة أو قبائل مختلفة ويرجع هذا التقسيم إلى عهد أبي منصور اليسع بن أبي القاسم الذي بنى سور المدينة "وارتحل إليها سنة مائتين وقسمها على القبائل على ما هي عليه اليوم".²³

ارتبط تعمير المدينة بالفعل السياسي وتطور عبر علاقة وطيدة به.

فعند التأسيس، توزعت الأحياء على القبائل الحليفة مما يجعل منها تجمعاً سكنياً لعصبيات تربطها علاقة الدم والحنف بالحاكمين ثم تختلط هذه الساكنة مع عناصر جديدة تأتي عبر هجرات من مناطق بعيدة للمشاركة في الحياة العامة للمدينة مدفوعة بالرغبة في الكسب والعيش الرغيد خصوصاً وأن تأسيس المدينة تبعته مرحلة طويلة من الازدهار دامت ستة قرون توالى خلالها نفوذ إمارات ودول عديدة بدءاً بقبائل مكناسة ومغراوة الزناتين ثم المرابطين من صنهاجة والموحدين من مسمودة والمرينيين من زنادة.

وخلال ذلك جاءت عناصر وجاليات عربية مشرقية كأهل الكوفة والبصرة والقيروان والأندلس، وكل هذه العناصر بالإضافة إلى اليهود والزنج، أسهمت في تعمير المدينة كما أسهمت في إنعاش اقتصادها بأن أتت إليها بتقنيات جديدة في الصناعات والحرف.

22 - المقدسي، م.س. ص 131.

23 - البكري، م.س. 148.

الحفريات الأركيولوجية التي أنجزتها البعثة المغربية الأميركية تحت إشرافنا خلال الفترة الممتدة من 1988 إلى 1996 مكّنت من التعرف على اتّساع المدينة وحدود أسوارها الداخلية والخارجية عن طريق المسح الأثري والصّور الجوية والصّور المأخوذة بالأقمار الصناعية. فالحفريات الأثرية مكّنتنا من التعرف على بنية المدينة وتقنية البناء وأنواع المواد المستعملة ومقاربة تاريخية لها.

فقد كشفت الحفريات عن بقايا الدور السكنية الكبيرة والمتوسطة حيث زوّدت بكل المرافق الأساسية من حمّام خاص وكنيف وقوادم لجلب الماء مدفونة وجرار الطّين الكبيرة المستعملة لخن المياه والمطامير لخن المنتجات الفلاحية كما أنّ بعض البيوت لا تخلو من زخرفة باستعمال الجبس والصباغة أحيانا في الواجهة الداخلية للبيت.²⁴

من جهة أخرى أظهرت الحفريات التي تمت في مركز الموقع وبالضبط في المسجد الجامع الحالي الذي بني في القرن السابع عشر الميلادي أنّ هذا الأخير بني فوق مسجد قديم بني بدوره على مرحلتين. المرحلة الرابطة أولًا ثم عرف توسّعًا نحو الشرق بمقدار الضعف مع تغيير المحراب في العهد الموحدّي. وقد أكّدت التحليلات المخبرية واللقى الأثرية هذه المراحل التاريخية.²⁵

من جهة أخرى تمّ تحديد سور مدينة سجدلماسة الداخلي وباستعمال تقنية النظام المعلوماتي الجغرافي (GIS) تم تحديد أزقة المدينة القديمة وشوارعها انطلاقًا من الأطلال المتبقية.

كما ركّزت الدراسة الجغرافية للمجال القريب من المدينة على الرواية الشفوية واستعمال صور الأقمار الصناعية حيث تم مزج المعلومات المتوفرة التاريخية منها والأركيولوجية مع معطيات الصّور الجوية للحصول على خريطة كاملة أعطت نتائج هامة.

وقد تبين أنّ مجال مدينة سجدلماسة يمتدّ على طول ثمانية كلمترات بين قصر المنصورية الحالي بالشمال وقصر تابوعصامت بالجنوب والذّان يحتفظان ببعض الأطلال التي ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وهي عبارة عن باب كبير معزول بالقرب من القصور المتواجدة حاليًا بالجهات الأربع لمدينة سجدلماسة. وقد أظهرت الصّور الجوية وجود سور

R. Messieur et al. Archeological Survey of Sijilmasa, 1988. Bulletin d'Archéologie Marocaine, - 24 T.18, 1998, pp. 265-290.

R. Messieur et al. " Le plan de Sijilmasa révélé par GIS ". Actes des 1ères Journées Nationales - 25 d'Archéologie et du Patrimoine, Volume 3, Rabat 2001, pp. 99-107.

يربط بين هذه الأبواب في بعض الجهات محصنا بذلك البساتين الزراعية والسقوية القريبة من المدينة. وقد أشارت المصادر الجغرافية القديمة إلى وجود البساتين والمنتزهات "رستاقات"، التي يمتلكها أعيان المدينة.²⁶

وهذه الأبواب هي باب الشرق وباب الساحل في الجنوب، باب فاس ويسمى أيضا باب الريح في الشمال وباب الغرب. وبالقرب من هذه الأبواب توجد اليوم قصور محصنة بعضها يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي.

أشار الإدريسي إلى أن طول سور سجلماسة يبلغ مرحلة حيث أنه إذا خرج فارس في الصباح، فإنه لا يعود إلى نقطة الانطلاق إلا في المساء وهذا الوصف يتطابق تماما مع السور الذي يحيط بمجال سجلماسة.

من جهة أخرى تم الكشف خارج باب الغرب عن بنايات محصنة مستطيلة الشكل (90م 80م) ويسمى الموقع حسب الرواية الشفوية سوق ابن عقلة. ويدل تصميمه على أنه خان/فندق يستقبل بضائع القوافل الآتية من السودان الغربي عبر الطرق الثلاث.

وتذكر المصادر التاريخية اسم عائلة ابن عاقله التميمي في المخزن المريني بسجلماسة، ومن هذا نستنتج أن هذه العائلة كانت مكلفة بجمع الضرائب والمكوس المفروضة على التجار الذين يصلون إلى سجلماسة. وقد كان الخان أو الفندق المنسوب لها مخصصا لتجارتها الخاصة أو لحجز بضائع التجار أو تخزينها في انتظار استيفاء ما بذمتهم. ونظرا للأعداد الكثيرة من الجمال المكونة للقافلة بين ألف وثلاثة آلاف جمل، فمن المستبعد أن تدخل كل هذه القوافل إلى مدينة سجلماسة لأن المجال لا يسعها وإنما كانت تفرغ حمولتها في مخازن خانات وفنادق خارج المدينة، بينما تقوم القصور المحصنة بجوار الأبواب الكبرى بحراستها.

النشاط التجاري بسجلماسة

أ - دورها في المبادلات:

كان للازدهار الذي عرفتة مدينة سجلماسة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين أثره في أن أصبحت هذه المدينة قبلة لعدد كبير من التجار الذين قدموا إليها من مختلف مناطق المغرب العربي والمشرق العربي.

26 - ياقوت الحموي، معجم البلدان - مجلد III، ص 192.

ومن خلال بعض المراسلات يتبين أن التجار اليهود بسجلماسة كانوا يلعبون دور الوساطة بين تجار أرغون وسجلماسة. وقد أشار دوفورك إلى طريق تجارية كانت تربط مايوركا بإفريقيا - السودان عبر تلمسان وسجلماسة.²⁷

كما أسست شركة المقرين بسجلماسة وتلمسان في القرن السابع الهجري واستمرت إلى منتصف القرن الثامن الهجري، وهذا يعتبر نموذجاً للتنظيم الذي عرفتته التجارة الصحراوية. وقد سجل لنا لسان الدين ابن الخطيب كيفية العمل في هذه الشركة التجارية لأسرة المقرية التلمسانية "فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار واتخذوا طبل الرحيل ورواية التقديم عند المسير"²⁸. والمقريون في نص ابن الخطيب كانوا خمسة أخوة شركاء في العمل التجاري موزعين على عدد من المراكز التجارية بخاصة سجلماسة وتلمسان وفاس وتمبوكتو.

ب - تنظيم القوافل

كانت الرحلة إلى بلاد السودان الغربي انطلاقاً من سجلماسة تتم مرتين في السنة وتستغرق في المعدل ستين يوماً، وهي قافلة كبيرة من الجمال يصل عددها إلى الآلاف.

وكانت القبايل المنتشرة جنوب سجلماسة ودرعة على الطريق المؤدية إلى السودان المغربي تتكون من مسوفة وجدالة ولمتونة. وقد انطلق ابن بطوطة من سجلماسة في رحلته إلى السودان الغربي رفقة القافلة التجارية. ويذكر أنه اشترى جملاً للرحلة من سجلماسة وأن قائد القافلة التي سار فيها من قبيلة مسوفة الزناتية اسمه محمد بن يندكان المسوفي.²⁹

إضافة إلى القائد كانت القافلة تضم الكشاف وهو الرجل الذي تكتريه القافلة ليتقدم برسائل التجار إلى مدينة أيولان لأصحابهم بها والمتعاملين معهم ليكثروا لهم الدور والخروج للقائهم بالماء. وأخيراً هناك الدليل الذي يرافق القافلة ليدها على الطريق في المفازات التي تتحول بها الجبال الرملية من مكان إلى آخر. وهذا الثلاثي الرئيسي في القافلة، القائد والكشاف والدليل، كلهم ينتمون إلى قبيلة مسوفة الزناتية.³⁰

27- Ch. E. Dafourq : Une Route de l'Or au Moyen Age de l'Afrique Noire : " Majorque par Sijilmasa et Tlemcen ", Bulletin d'information historique, Faculté des Lettres d'Alger, n°3, Janvier 1966, p. 19.

28 - ابن الخطيب : الإحاطة بإخبار غرناطة، القاهرة 1889، ج 2، ص 192.

29 - ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت 1975، ج 2، ص 777.

30 - نفس المصدر، ص 774.

يرتبط الحديث عن القافلة بقطعان الإبل التي كانت تمثل أهم ثروات القبائل المنتقلة في الصحراء. فقد أشار البكري في القرن الحادي عشر الميلادي أن قبائل صنهاجة كانت تحارب على ظهور الجمال كما أن المرابطين قاموا بحملتهم على سجلماسة سنة 1054م وأمير المدينة مسعود بن واندن المغراوي في جيش قوامه ثلاثون ألف جمل³¹ كما أن هذا الأمير المغراوي كان يملك بدرعة سنة 447 هـ/1055م خمسين ألف ناقة³².

إن هذه الأعداد الكبيرة من الجمال التي يمتلكها شخص واحد من الأمراء تؤكد الدور الذي لعبته تجارة القوافل بالسودان الغربي.

ج - السلع

ليس من السهل تحديد القيمة الحقيقية للمبادلات التجارية بين سجلماسة وبلاد السودان الغربي في العصر الوسيط، لأننا لا نعرف كمية ولا ثمن السلع المستوردة أو المصدرة نتيجة اقتصار المصادر الجغرافية والتاريخية على ذكر الأرباح الكثيرة التي كانت تدرها هذه التجارة على المشتغلين بها.

سنكتفي فقط بإعطاء جداول حول السلع ببلاد المغرب المصدرة إلى بلاد السودان والعكس، وكذلك السلع الرائجة بين المغرب وأوروبا كما جاء في النصوص التاريخية.

هناك عنصر أركيولوجي هام لم تعطه المصادر أية أهمية وهو الخزف. ووجوده بكثرة يعتبر مؤشرا للتبادل التجاري. فعن طريق الحفريات بالموقع وبعد دراستنا له وجدناه يمثل بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط الأوروبية والإسلامية كما يمثل بلدان إفريقيا الغربية (السودان).

فهناك الخزف الآتي من بلاد الأندلس وحتى من إيطاليا، الإفريقي من جنوب الصحراء، وهو عبارة عن عجينة غليظة تحمل زخرفة موحدة متكررة على سطح الأواني كانت تحملها القوافل التجارية في طريق العودة إلى سجلماسة.

ومن جهة أخرى نجد خزف سجلماسة بعدد من المواقع التي تمت بها الحفريات الأركيولوجية ببلاد المغرب وهي فاس ومراكش بإفريقيا الغربية وأوداغست وجيني جنوب الصحراء.

31 - البكري، م.س. ص 167.

32 - ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط 1970، ص 128.

ولمّا قامت البعثة الفرنسية المتخصصة في دراسة الخزف بتحليل مكوّنات خزف أوداغست بالمختبر تبين أنّ نسبة هامة من الخزف بهذا الموقع ربما ترجع للمغرب الأقصى. فتمّ جمع عيّنات من طين وخزف موقع سجلماصة، وكانت النتائج مذهلة، حيث أنّ أكثر من 50 في المائة من الخزف الذي تمّ تحليله مخبرياً يعود في أصله من سجلماصة³³ كل هذه اللّقى الخزفية تعود إلى الفترة الممتدّة من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي وهي فترة ازدهار مدينة سجلماصة. كما تمّ العثور بموقع سجلماصة كذلك على مجموعة من الحلّي منها ما صنع بمصر (الفسطاط) وقوارير زجاجية واللؤلؤ الزجاجي وكلّها ذات أصل مشرقي عربي (الفسطاط ودمشق) وأنواع من غليون التدخين الطيني والعاجي من إفريقيا الغربية.

وهذا نصّ شهادة ياقوت الحموي عن السلع التجارية إذ يقول: "يسافر التجار من سجلماصة إلى مدينة تقع على الحدود مع السودان تسمّى غانا. وكانت بضائعهم هي الملح واللؤلؤ المصنوع من الزجاج الأزرق ودمالج من فضة والنحاس الأحمر".³⁴

فسجلماصة لم تكن مجرد محطة تجارية لاستراحة القوافل أو التقاء التجار قبل انطلاق الرحلة في طريق الذهاب إلى بلاد السودان أو طريق العودة منها، بل كانت مركزاً رئيسياً في توفير سلع المبادلات والوسائل الضرورية للعمل التجاري. فقد اشتهرت المنطقة بإنتاج مواد زراعية هي التاكوت والحناء والتمور والنيلة، والمصنوعات النحاسية والحديدية وأواني الفخار والمنتجات الصوفية. وهذا ما يؤكد أنّها لم تكن مجرد وسيط في عملية المتاجرة.

وسجلماصة بعد هذا الازدهار الذي استمر حتى القرن الرابع عشر الميلادي، أصبحت اليوم معرّضة أكثر لخطر الزحف العمراني لمدينة الريصاني. واستغلال وتدمير هذا الموقع سيعود بالنفع على المنطقة، لكن السياحة بالمنطقة للأسف تركّز أكثر على مناظر الطبيعة من واحات وكثبان الرمال، بينما مدينة سجلماصة وهي الرصيد الثقافي الهامّ بات في طيّ النسيان حتى عند سكان المنطقة أنفسهم.

M. Picon. Op. Cit. p. 53. - 33

34 - الحموي، م. س. ص 192.